المنهج الفلسفي ومفهوم التقدم العلمي

رشا محمد صلاح الدين(*)

مقدمة

بدأت معضلة العلم مع جالليلو الذي واجه مجتمعه آن ذاك وحاول إثبات خطأ نظرية أرسطو حول الحركة إلا أن ما واجه جالليلو حقا لم يكن الاتهامات أو المحاكمات أو حرق كتبه وإنما واجه مجتمع لا يقبل ما لا تستطيع اقناعه به وهنا جاء دور الفلسفة ودور ديكارت الذي قدم لهم الكوجيتو الديكارتي والذي به استطاع اقناع مجتمعه بأننا نستطيع إثبات أشياء دون أن نراها وكان متنفس العلم بمنهجه التجريبي الحتمي وسبب في التقدم العلمي الذي حققته الإنسانية خلال القرون الماضية؛ إلا أن فكرة التقدم والمحاولة الداءوبة لتحسين وضع الإنسان، أرقت الكثير من الفلاسفة والعلماء؛ وعلى الرغم من الاعتقاد أن فكرة « التقدم» تقتصر فقط على ما حققه المجتمع العلمي، إلا أن ما مر به العالم من تحديات وتطورات أثرت على العالم بأسره. والإشكالية الرئيسية لهذه الدراسة أولًا: محاولة دراسة وضعنا في القرن العشرين وربما تكون هذه المحاولة سببًا في تغيير طريقتنا في رؤية المستقبل. ثانيًا: محاولة الكشف عن دور الفلسفة في حل تلك الإشكالية، وما هو الدور الذي يمكن أن تلعبه الفلسفة لمواجهة العقبات والمعضلات في القرن العشرين لاسترداد المعنى الكامل لإنسانيتنا؟ وستحاول الباحثة في نهاية البحث بيان الدرس الصعب الذي نتعلمه في نهاية هذا القرن، وتوضيح كيف أننا كمجتمع عاجزين عن مواجهة الألغاز الرئيسية للوضع الإنساني، وليس لدينا دليل على كيفية الجمع بين الشعور بكرامة الفرد وقدسية الحياة الإنسانية. وأنه يجب علينا أن نفسح مجال لفكرة الأمل. سيعتمد منهج الدراسة على المنهج التحليلي، والمنهج التاريخي، والمنهج النقدي المقارن.

(*) الباحثة: رشا محمد صلاح الدين عبد الله «باحثة دكتوراه» كلية الآداب جامعة المنيا.

المنهج التجريبي

فرانسس بيكون وتحطيم الأوهام:

ما أراده «فرانسس بيكون» Francis Bacon (١٥٦١ - ١٦٢٦م) هو الوصول إلى المعرفة الصحيحة، وذلك لن يتم إلا بتطهير العقل من كل الأوهام التي تقف في طريق التفكير السليم. فإذا تم تطهير العقل الإنساني من أوهامه أمكنه التوجه للمعرفة الصحيحة. كان «بيكون» يرى أن العقل أشبه بالمرآة التي لا تقوم بوظيفتها كاملة إلا إذا تم صقلها صقلًا تامًا حتى تزول منها جميع الأوساخ ، و إذا تم كذلك توجيهها التوجيه المناسب نحو النور ثم بعد هذا وذاك يوضع أمامها الشيء الذي نريد رؤيته فيها في المكان الملائم الذي يسمح بظهوره كاملاً فيها(١).

كان هدف «بيكون» الأخذ بيد الإنسان نحو التقدم، والسيادة على الطبيعة، «و إذا أردنا أن نتحكم في الطبيعة، فيجب أن نبدأ بطاعتها من خلال الملاحظة الطويلة المتأنية، النظامية وغير الضارة. هنا وهنا فقط سوف نفهم الأسباب الحقيقية للأشياء، ونكون قادرين لأول مرة على السيطرة على الطبيعة من أجل مصلحتنا(٢) ما يقدمه «بيكون» في الجانب الإيجابي من فلسفته العلمية (الاستقراء العلمي). إن المعرفة العلمية عند «بيكون» تبدأ من الشك فيما قال السابقون، ومن التجربة والخطأ وتصنيف الملاحظات و إعادة تصنيفها دون يأس أو ملل(٣).

عند «بيكون» نجد أن التنوير المتميز يؤكد على العلم وعلى الإجراء العلمي والضروري لغياب الإجحاف والخرافة(٤). وهو بذلك افتتح عصر إخضاع الطبيعة للإرادة الإنسانية ومعاملتها كخصم لنا، وما نحصده اليوم من جراء هذه المعاملة من تدمير لها ولنا معاً(٥).

هذا ما أراده «بيكون» تحقيق السعادة، التخلص من الألم، تحرير وضع الإنسان، السيطرة

---

(١))مصطفى النشار: مدخل جديد إلى الفلسفة، دار قباء، القاهرة، ط١، ١٩٩٨، ص ١٣٠.

(2) O'Hear, Anthony, After Progress, p.16

(٣))مصطفى النشار: مدخل جديد إلى الفلسفة، ص ١٣٠.

(4) O'Hear, Anthony, op.cit,p.19

(٥))هاني يحيى نصري: دعوة للدخول في تاريخ الفلسفة المعاصرة، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ٢٠٠٢، ص١٦٣.

على الطبيعة، ولقد وجد كل هذا من وجهة نظره - في العلم، رد كل شيء إلى التجربة والملاحظة، ورفض كل السابق.

واختلف «أو'هير» مع «بيكون» وكذلك «نيوتن» كما سنري ولكن ليس في كل شيء، فلم يقف «أو'هير» ضد العلم موقف الرفض التام كما فعل كثير من الفلاسفة أمثال روسو، هيردر، بروك ودي مايستر. ولكنه اعترض على ما خلفته العلوم في مجتمعاتنا الإنسانية.

وفي كتابة «ما بعد التقدم After Progress» وضع «أو'هير» مرات ومرات كيف أثرت التطورات والنظريات العلمية على بصائرنا واعتقاداتنا الأكثر قيمة، ووضح ذلك بوصفه الخاص «إن العلوم لا يمكنها ولا تقوم بترك أي شيءآخر كما هو ففي ادعائها باستكمال الموضوعية غير المجحفة، نجدها تتخلص من كل شيء لا يتناسب مع إطار عملها كمجرد خرافة».

حيث قام المجتمع البشري على قواعد العلماء الأساسية بإعادة بناء العلوم والفنون الإنسانية نفسها. وفي عام ١٩٩٩م وضعت التطورات العلمية خاصة في مجالات الطب والجينات من أجل التخلص من المفاهيم القديمة لقداسة الحياة والحياة البشرية. فالعلم يدفع تطور أنظمتنا في القيمة، وليس العكس».[١] في رأي «أو'هير» أنه في مستوي عميق، لا يعد العلم حر القيمة، لكنه يحدد تعرية القيمة، من خلال ما يكون ممكنا وبما يبدو أنه يخبرنا عن أنفسنا[٢].

يمكن القول أن رأي «أو'هير» في النهاية هو أن هناك أهداف في الحياة أعلى من التخلص من الألم وخلق السعادة. وكان هذا بمثابة ضربة هزت منهج «بيكون»، وليس «بيكون» وحده بل وكل من سار على نفس الدرب.

ظهر العالم «نيوتن» في القرن السابع عشر، حيث أثرت قوانينه الثلاث على عقول الناس والعلماء لسنوات، اتضح فيها أن الأساس للتقدم هو الملاحظة، الملاحظة والملاحظة الأكثر - التحليل، التلسكوب والميكروسكوب إنه «نيوتن».

نيوتن وآلته العلمية:

يعد «نيوتن Newton (١٦٤٢ - ١٧٢٧م)» من أشهر العلماء الذين اعتنقوا النظرة الميكانيكية

(١) انظر، حبيب الشاروني: فلسفة فرانسس بيكون، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط١، ١٩٨١، ص ٢٧.
(2) O'Hear, Anthony,After Progress, p.19.

ويمكن القول أن القوانين الثلاث التي قدمها «نيوتن» هي لبيان أن معظم الحركات التي تحدث في العالم يمكن تفسيرها في إطار تلك القوانين الحسابية البسيطة، كان ذلك وبكلمات «أو'هير» «انجاز مذهل وجريء، وليس من المفاجئ أنه جاء ليسيطر على عقول الناس لقرون»[١].

فما هي تلك القوانين الثلاثة؟

١- كل جسم يواصل حالته من السكون أو الحركة في خط مستقيم ما لم يقصر على تغيير تلك الحالة بقوة مسلطة عليه.

٢- يتناسب تغير الحركة مع القوة الدافعة المسلطة على الجسم ويكون في اتجاه الخط المستقيم الذي سلطت عليه تلك القوة.

٣- لكل فعل رد فعل معاكس ومساو له: أو إن الفعلين المتبادلين لجسمين متساويان دائماً[٢].

طبقًا لتلك القوانين كانت كرات البلياردو، عربات الفلاحين، ودوران الكواكب، كلها تعمل بنفس القوانين. ولقد أوضح «نيوتن» أنه من أجل التفسير العلمي يمكن تجاهل مظاهر الأشياء لونها، ملمسها، طعمها، صوتها، ورائحتها وتدعى هذه الأشياء الصفات الثانوية[٣].

إن رؤية «نيوتن» لم تفتح أي مكان للأرواح أو النفوس أو حتى الحرية الإرادة الإنسانية. فنحن لا نكون في نهاية المطاف سوى جزء من العالم الطبيعي ونحن نخضع لقوانينه، على غرار ما تفعله الذرات وكرات البلياردو[٤]؛ لذلك فان الحرية البشرية تعد وهماً ويمكن رؤية ذلك بمجرد عمل العلوم الخاص بالسلوك البشري[٥]. إن المحتوى الذي تضمنه الكون النيوتوني كان الحلم (أو الكابوس) بذكاء الجنس البشري السامي[٦].

ما هي أوجه القصور في المعرفة العلمية؟

في قصة بعنوان «The man who mistook his wife for a hat الرجل الذي اختلط عليه

(1) Ibid, p.13

(٢))على الشوك: الثورة العلمية الحديثة وما بعدها، دار المدى للثقافة والنشر، سورية، ط١، ٢٠٠٤، ص ٥٨

(3) O'Hear, Anthony, After Progress, p.14.

(٤)أنطوني أوُهير: الفلسفة في قرن جديد، ترجمة: وهبة طلعت أبو العلا، دار الهدى للنشر والتوزيع، المنيا، ط١، ٢٠١١، ص١٠٦)

(5) O'Hear, Anthony, After Progress, p.16

(6) Ibid, p.14.

الأمر بين امرأته والقبعة» ل أولفير ساكس Oliver Sacks لنفترض أن رجل ارتكب جريمة قتل وعلى الفور تعرض لحادث سير تسبب له في فقدان الذاكرة المؤقت، وكان لدى الشرطة الأدلة الكافية لإدانته وملاحقته، ولكن لا يمكن إدانته لأنه الآن شخص مختلف، ولكنه بعد خمس سنوات تعرض لحادث سير أخر تذكر خلالها كل ما حدث وقدم كل الأدلة على أنه القاتل القصة تثير العديد من الأسئلة هل يجب ملاحقة المجرم قضائيا؟ أو يجب محاكمته؟ هل هو نفس الشخص بعد فقدان الذاكرة؟ وهل استعاد الذاكرة التي تدفع الشرطة إلى محاكته؟[١]

الأمثلة لم تنته دعنا نضرب مثل آخر لفيلسوف شيلي كيجن shelly kagan في جامعة «ييل» قدم في مجموعة محاضرات له بعنوان «Death» شرح خلالها « قصة رجلين أسر أحدهم b1» «في الحرب وأجرى له عملية جراحية نقل فيها عقله وشخصيته وذكرياته إلى شخص آخر bn» «ونقل عقل وشخصية الآخر إلى هذا الشخص» الأسئلة الآن هل إذا قام بتعذيب bn من سيتعذب b1 أو bn؟

وأثار خلال المحاضرة العديد من الأسئلة منها هل الإنسان هو جسد فقط أم أنه جسد وروح؟ والحقيقة أن هذه الأسئلة تفتح المجال إلى العديد من الأسئلة هل ما يربطنا بالعالم الخارجي روابط فيزيائية فقط أم الفيزياء ليست هي الرابط الوحيد الذي يربط الإنسان بالعالم الخارجي؟[٢]

المذهب العلمي بين الحتمية والاحتمالية:

في مقال بعنوان «العلم والدين science and religion» عرف «أو'هير» العلم بأنه «محاولة لتصنيف ووصف وتفسير الظواهر الطبيعية بأحكام الرياضة الاختزالية: أي أنه يرى التنوع العظيم للظواهر الطبيعية في إطار العمليات الممثلة كمياً من أعداد صغيرة من الأشياء أو الإجراءات التي تظهر كسبب مسئول عن الظواهر. وبتطبيق ذلك، فهو يستنبط مما يرى خواص سببية غير متصلة لظواهر الصفات الثانوية والكثير مما يماثل ذلك. من وجهة نظر التجربة البشرية تلغي الصورة العلمية الكثير مما هو هام ومعبر[٣].

(1) http: //www.askphilosophers.org/question/2226

(2) https: //www.youtube.com/watch?v=gh - 6HyTRNNY

(3) O'Hear, Anthony ,science and religion, the British journal for philosophy of science,Vol.441, No.3, Oxford University Press, 2010, p.512

تتمثل الصورة التي تتيحها العلوم الحديثة عن العالم في العلم الذي لا يتم إدراكه من جانب الإنسان والذي لا يتم من خلاله إزالة الصفات الثانوية فقط كـ(اللون - التذوق - الصوت) ولكن تصبح كذلك من خلال الأشياء المعتادة ذات الاستخدام اليومي بمثابة مجموعة متشابكة من الجزئيات التي لا تتسم بالوضوح.[١]

يمكن القول إن اللون وغيره من الصفات الثانوية تكون صفات غير جوهرية من الناحية العلية. فهذه الأشياء تكون هي نفسها من نتاج موجات ضوئية وصوتية طولية تكون لها ترددات معينة إلى جانب عناصر فيزيائية أخرى يمكن وصفها وصفاً كاملاً بدون الإشارة إلى صفات ثانوية. وبالرغم من ذلك فهذا لا يوضح أن اللون وغيره من الصفات الثانوية الأخرى لا تتمتع بالوجود. وحتى إذا كان اللون وبقية الصفات الثانوية الأخرى لا تظهر في التفسير العلمي للعلل، إلا أن هذا لا يعني أنها ليست لها نتائج أو مؤثرات عليه[٢].

يؤكد «أو'هير» على أن الصفات الثانوية تتمتع بالوجود، فأنها أيضا لها نتائج ومؤثرات، فيقول: «إن الشيء الأكيد هو أن لها نتائج أو المؤثرات على العالم الإنساني، حيث يتأثر الكثير مما نفعله بإدراكنا للصفات الثانوية. مهما كانت احتمالية صدق أي تحليل علمي للون، بلغت أطوال الموجات وغيرها، إلا أن قراري دهان منزلي باللون الأزرق الذي اخترته، يكون مدفوعًا بطريقة ظهور اللون بالنسبة لي - وللآخرين - وبعلاقة ذلك ببقية الألوان في حجرتي. هذا يعني، بتعبير آخر، أن الشيء الحاسم في اختياري للون وفي كيفية ردود أفعال الآخرين تجاهه، سوف يتوقف على طبيعته كصفة ثانوية تتمتع بالمظهر الذي تظهر به والذي يكون مناسباً لمن يلاحظه[٣].

لأننا عندما نقوم كأشخاص برد الفعل تجاه بعضنا البعض، نجد أننا نقوم برد فعل تجاههم كموجودات لها دوافع، ومقاصد، ورغبات، وعواطف، ومعتقدات، وشخصيات، وغيرها، وهذا يعني، بتعبير آخر، كموجودات تكشف عن تلك الصفات والاتجاهات التي تقول المادية

(1) O'Hear, Anthony, Verstehen and Humane understanding, Cambridge University Press, United Kingdom, 1996 p.5

(٢))أنطوني أو'هير: الفلسفة في قرن جديد، ترجمة: وهبة طلعت أبو العلا، ص١١٢

(٣)) أنطوني أو'هير: الفلسفة في قرن جديد، ترجمة: وهبة طلعت أبو العلا، ص١١٢

الاختزالية إنها يمكن التخلص منها والسؤال هو: هل يستطيع العلم أن يوضح أن هذه الأشياء يمكن التخلص منها بالفعل؟ إن الإجابة على هذا السؤال هي بالنفي[١].

كل هذا جعل العلم يخلو من أي قيمة، وفي توضيح هذا الأمر يقول «أو'هير» يتمثل الجانب الصواب الخاص بإدراك العلوم باعتبارها تخلو من القيم في المادة العلمية والمناهج البحثية المتبعة في العلوم - تتمثل المادة العلمية الخاصة بالعلوم في وصف، وتحليل وتفسير العمليات الطبيعية التي تتحقق من خلال عمليات طبيعية أخرى وفقاً للوائح والقوانين الطبيعية - كما تشمل المناهج البحثية الخاصة بالعلوم ملاحظة وقياس الظاهر من خلال أشخاص كفء يقومون بتسجيل الملاحظات، بغض النظر عن معتقداتهم، دوافعهم وخلفياتهم الثقافية والاختبارات الصارمة الخاصة بالنظريات التي تتعارض مع هذه الملاحظات والقياسات والتي يقوم بإجرائها علماء آخرين بغض النظر عن الأيديولوجية أو الخلفية الخاصة بهم[٢].

إن المذهب العلمي بكلمات «جون كيكيز John Kekes» - في تعليقه على كتاب «الفلسفة في قرن جديد لـ «أو'هير» - هو انحراف لأنه يهمل أو يشوه الأخلاق، الجمال، البعد الديني للحياة بشكل مشين. يترتب على ذلك تشويه بذئ وجاف للسمات الأساسية لوجودنا. إن نزعته المادية تسلبنا القوة بالإصرار بأن وجهة النظر الوحيدة المعقولة للحقيقة يجب أن تكون لا بشرية. إنه بذلك ينفي العديد من القيم التي تجعل من حياتنا حياة مجدية. إنه هجوم وحشي عميق الأثر على إنسانيتنا[٣].

ويعتقد الباحث أن وصف «أو'هير» بأن العلوم تخلو من القيم فيه اجحاف على مفهوم القيمة نفسه، وبالرجوع إلى مفهوم القيمة نجد أنه لا يمكن أن تخلو العلوم، أو المادة العلمية أو المناهج البحثية المتبعة في العلوم من كل القيم، حتى وإن كانت تخلو من القيم الثقافية أو الواقعية، فإن ذلك لا يعني أنها تخلو من كل القيم التي يحملها العالم لنا - كما وصف أو'هير، وقد كان «جون ككيز» أكثر دقة في قوله بأنها تنفي العديد من القيم التي تجعل حياتنا مجديه.

---

(١) نفسه، ص١١٣.

(2) O'Hear, Anthony,Verstehen and Humane understanding, p.5

(3) John Kekes,(Anthony O>Hear: Philosophy in the new century), Mind new series, Vol. 111, No.442, Oxford University Press, 2002, p.460

المنهج العقلي

إيمانويل كنط:

يقول «إيمانويل كنط Immanuel Kant (١٧٢٤ - ١٨٠٤م)» في الغاية التي يرمي إليها مخلوق عاقل تكمن الحرية، أما في مجرد الآليات التي يخضع لها ذلك المخلوق فتكمن الضرورة الطبيعة» هذا التقابل القائم بين التجربة والعقل؛ بين الضرورة والحرية، بين الواقع والإمكان، بين المحدودية والآفاق، هذا رأي «غولدمان» تلك الرؤية التي تدرك عظمة الإنسان في ما يطمح إليه، وحقارته في عجزه أن يحقق مطامحه. وهي نظرة مأساوية Tragique لأنها تبقى على التوتر بين القطبين، ولا تحل المشكل بإلغائه إما بإرجائه إلى حياة أخروية، أو بربطه بفترة ذهبية من ماضي البشرية.(١)

أما عن رأي «إ. م. بوشنسكي» فيرى أن «كنط» يرى هذا العالم التجريبي هو نتاج تركيب قامت به الذات الترنسندينتالية معتمدة على كم هائل، ينقصه التنظيم، من الإحساسات. وهكذا فإن قوانين المنطق والرياضيات والعلوم الطبيعية تحكم العالم التجريبي وأحداثه، لا لشيء إلا لأن العقل يدخلها في هذا العالم. وفي نفس الوقت فإن العقل نفسه لا يخضع لهذه القوانين، لأن العقل لا يأتي من العالم الحسي، بل هو بالأحرى مشرِّع له، وهو منبع القوانين التي تحكمه. وهكذا ينقذ «كنط»، وبضربة واحدة، العلم والعقل.(٢)

هذا هو رأي «غولدمان» و«إ. م. بوشنسكي»، فما هو رأي أو'هير؟

يقول «أو'هير»: اعتقد «كنط» بأنه كان يوجد مظهرين لطبيعتنا. من جانب، أننا كنا جزءًا من العالم الفيزيائي، المخلوقات الفيزيائية، وعلى النحو ذاته كل الكائنات لقوانين وقوى «نيوتن»، وأفعالنا القابلة للتفسير من خلال قوانين نفسية؛ لكن من جانب آخر، كنا أيضا عقلانيين وأحرار، لا ترشدنا فقط قوى الطبيعة، لكن قادرين على العمل بحرية مع اعتبارات أخلاقية. لذلك فنحن جميعاً في العالم الفيزيائي وفي ذلك، حالة مناسبة للبحوث العلمية، لكن

(١)عبد السلام بنعبد العالي: الميتافيزيقا، العلم والأيديولوجيا، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط٢، ١٩٩٣، ص٤٤.

(٢) إ. م. بوشنسكي: الفلسفة المعاصرة في أوروبا، ترجمة: عزت قرني، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٩٢، ص٢٦.

في نفس الوقت، من خلال امتلاكنا للعقل وشعورنا بالواجب، نعد نحن أيضا جزءًا من أنشودة «مملكة النهايات» التي يعتبر سكانها قادرين على العمل لأسباب أخلاقية خالصة، ومتحررين من متطلبات وقيود تركيبنا الجسدي والنفسي المعتاد.(١)

الأمر هو أن «كنط» كان يدرك عندما وضع المخلوقات البشرية في أنشودة وأخلاقية «مملكة النهايات» تماماً كما في عالم الطبيعة. كعضو في مملكة النهايات يجب معاملته كغاية في ذاته أو ذاتها، محترماً، ذو قيمة، محمود وفي أوقات ملاماً بطريقة لا تقدم أي معنى ما دمنا نتفق بشكل محض مع الأشجار أو الأحجار أو حتى الحيوانات غير الناطقة.(٢)

«كنط» لم يكن مستعدًا للتخلي عن النطاق العالمي للعلوم أو الحرية الإنسانية، لم يكن «كنط» قادراً على الهروب من المأزق، ولكن كانت له أشياء هامة ومؤثرة يمكن قولها عن المخلوقات البشرية: بالنسبة لـ «كنط»، كمخلوقات عقلانية، نحن قادرين على صنع قراراتنا والتقرير من خلال قواعدنا الخاصة للسلوك. ففي نصوصه نحن مستقلون، ومستقلون بالكلية. ما ينبغي أن نقوم به جميعا في ممارسة استقلالنا الفردي هو احترام استقلال الآخرين من المخلوقات الموجودة بصورة مماثلة. لا ينبغي أن نمارس مع الآخرين ما لا نريد منهم ممارسته معنا. فيجب أن نعامل الآخرين كغايات لهم خططهم ومشروعاتهم الخاصة، وليس كوسائل لغاياتنا.(٣)

بسبب عقليتك أساسية المستوى وقدرتك على تشكيل مشروعاتك وأهدافك الخاصة، التي توجد لدى ولديك ولدى أي فرد آخر لأننا مخلوقات بشرية. من هذا المنطلق نحن جميعًا متساويين؛ كغايات في ذاتنا، يجب أن نكون مسموعين جميعاً. لكن ليس هناك واحد أعلى من الآخر وذلك كله بسبب نفس العقلانية التي نتشاركها.(٤)

وهنا يتساءل «أو'هير»، هل تلك القواعد الكانطية عن المساواة بين المخلوقات المستقلة نفسها قابلة للتبرير؟ هل نحن لا نحلق في مواجهة قائمة اختلافات الموهبة، الفضيلة والجهد الذي نواجهه كل يوم في تعاملاتنا مع زملائنا؟ لماذا ينبغي أن يكون لدى بعض المتسكعين

(1) O'Hear, Anthony, After Progress, p. 50.
(2) Ibid, p. 51.
(3) Ibid,p. 52.
(4) Ibid, p.52.

الجهلاء الكسالى نفس الحقوق السياسية ويتم منحهم نفس الاحترام الأخلاقي مثل طبيب أو شرطي مسئول وجاد العمل؟ هل لا تميز مملكة النهايات الجيدة الصيت، في الحقيقة، الضعيف وتكافؤ غير المستحق؟ هل أحد فعلاً يحترم الاستقلال البشري بإغلاق عيونه عن الاختلافات المهمة أخلاقياً، الوقوف والإنجاز باسم مساواة الحقوق الرسمية؟ ربما التربية، الخلفية الثقافية والتعليم ينبغي أن تمنح امتيازاً لهؤلاء الذين يمتلكونهم للدرجة التي تجعلهم قادرين بشكل أفضل على اتخاذ القرار أو الحكم.(١)

إن القول بأن التربية، الخلفية الثقافية والتعليم ينبغي أن تمنح امتيازاً لهؤلاء الذين يمتلكونهم للدرجة التي تجعلهم قادرين بشكل أفضل على اتخاذ القرار أو الحكم.يمكن أن تكون من الأشياء المهمة التي تكلم عنها «كنط» ولكن، يرفض القهر والإنكار الذي يمارس على الفرد الذي يحاول إثبات ذاتيته وحريته، من خلال العيش منسجماً مع قراراته واختياراته. ويرفض مدى قدرة العقلانية التقدمية على تهميش أي فرد يجرؤ على التفكير. من كل ما سبق يجد الباحث أن نقد «أو'هير» لـ «كنط»، كان نقد متوازناً، فمن الواضح أن «كنط» لم يستطع بالفعل الهروب من مأزق التفسير العلمي. ولم يعطي الإنسان حريته، بل ظلت حرية الإنسان منقوصة.

العقل المدمر للعقل

الداروينية:

كما هو ربما في عدم كونه معروفاً جيداً، في (أصل الإنسان)، «دارون» كان لديه بعض الأشياء الوقحة ليقولها عن الأعراق البربرية للناس، وعن القدرات العقلية الضعيفة والأخلاقية للهمجيين البربريين وعن زخارفهم البشعة وبصورة متساوية موسيقاهم الفظيعة. (دارون لم يكن لديه خبرتنا مع بيرويسل وموسيقى البوب الإلكترونية ولا تلك مع جون جاليانو ومادونا؛ أيضاً لم يكن بالتأكيد ليكون وقحاً جداً بخصوص المتوحشين مقارنة بالناس المتحضرة).(٢)

وهنا يطرح «أو'هير» بعض الأسئلة: في مبادئ «دارون»، كيف نضمن سلامة وحسن

(1) O'Hear, Anthony, After Progress, p.54.

(2) O'Hear, Anthony,Beyond Evolution, p.134.

النسل، فيما خلا السماح أو المساعدة على «إزالة غير المناسب»؟ أليست هناك بعض من النسل البشري أقل مناسبة، وأقل جودة عن الآخرين؟ بالطبع، على خلاف العديد من المهندسين الوراثيين اليوم، لا يجب علينا أن نأخذ الطريق الداروني على محمل عدم القدرة، ولكن المشكلة هي في إظهار كيفية البرهنة على الأخلاق ما دمنا نمكث داخل الإطار الداروني.(١)

يوضح «أو'هير» أن «دارون» كان قلقاً جداً من حصول نظريته عن أن الجنس البشري منحدر من القرود على القبول، ولقد وصف موقفه هو وتابعيه، وصولاً إلى علماء النفس التطوريين والوراثيين في وقتنا الحالي بأنه «الأكثر تدميراً»، فهم يقدمون الاحتجاج على أن السلوك الإنساني قابلاً للتفسير في سياق نفس عمليات الانتخاب الطبيعي وطبقًا لنظرية التطور.(٢)

إن الانتخاب الطبيعي - كما يوضح دارون - وبكلماته «هو قوة مستعدة باستمرار للعمل، وهي أقوى بشكل غير قابل للقياس من جهود الإنسان الضعيفة، مثل تفوق أعمال الطبيعة على أعمال المهارة».(٣)

ولقد أطلق «داروين» أحياناً على عملية الانتقاء اسم «الانتقاء اللاشعوري Unconscious Selection» وغايته تحسين الأنواع الموجودة بالفعل ومعاونتها على التكيف بالبيئة بدون أن يكون في ذلك أي اتجاه محدد لخلق صفات جديدة.(٤)

هذا هو توضيح لنظرية «دارون» عن التطور ولكن عند «أو'هير» لا تعد تفاصيل النظرية ذات أهمية. ما يهم هو الفكرة بأن الأعضاء الجسدية والميول السلوكية قد أعطيت للأسلاف امتيازات متنافسة. طالما يكون الاختيار الطبيعي حقيقة في الإنسانية، فإنه يكون حقيقياً في أعضائنا وقدراتنا أيضاً، ومثل كل الكائنات الأخرى في العالم الطبيعي، فإن الامتياز التنافسي الذي تخدمه صفاتنا المميزة يكون تطورياً من حيث إحياء وإعادة إنتاج الأعضاء الفرديين من الأجناس.(٥)

---

(1) O'Hear, Anthony, op.cit, p.63.

(2) O'Hear, Anthony, After Progress, p.63.

(٣) تشارلس داروين: أصل الأنواع ، ترجمة: مجدي محمود المليجي، ص ١٣٧.

(٤) أحمد محمد الشنواني: كتب غيرت الفكر الإنساني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠، ص٢٣٥.

(5) O'Hear, Anthony, After Progress, p.64.

بالحديث الصارم، لا تملك الطبيعة أي هدف؛ وكذلك التطور. ولكن ما يدفع الطبيعة والتطور هي فطرة المخلوقات الفردية كلها لتحيا وتتكاثر بمجرد أن يحيا الفرد لفترة طويلة كافية لمضاعفة جيناته كثيراً وينوع الذرية بقدر الإمكان، هؤلاء الذين ينشرون بأنفسهم الجينات السابقة، فإنه يحقق بذلك دوره التطوري.(١)

بالنسبة لأو'هير المذهب الدروني يفسر الظواهر ويوضحها، تبعًا لطبيعة عمياء غير واعية وغير مدركة أو ذكية ممتلئة بمخلوقات مشتقة بدون غرض للتعايش لوقت، ولو أنها محظوظة، للتناسل والتكاثر فيما بينها، مرةً أخرى تمنح حظ جيد وصالح، وبعد ذلك لتموت؛ وكل هذا ليس لأي سبب آخر سوى حقيقة أن لديها مثل تلك المحركات وتكيفات سلوكية وفسيولوجية كافية للتعايش والتكاثر، وبدون أي نتيجة خلاف تلك ذات الحظ.(٢)

إن «أو'هير» في كتاب «الفلسفة في قرن جديد» يقول عن «دارون» لقد جعلنا «دارون»، وإن يكن بطريقة تتسم بالجدة إلى حد كبير، جعلنا تحت رحمة دافع لا هوادة فيه إلى البقاء على قيد الحياة وإلى التكاثر. ويقول أحدث تفسير لنظرية «دارون»: ليس التفكير الواعي هو الذي يقودنا إلى أن نفعل ما نفعل فالجين اللاواعي هو الذي يستخدم ويقوم باستعمار الموجودات الإنسانية وغيرها من المنظمات الكاملة من أجل خدمة دافعها نحو مضاعفة نفسها. ونحن نكون في هذه الحالة سجناء غير دارين بسجنها للجينات الخاصة بنا.(٣)

وفي مقال بعنوان «التطور والجماليات» يقول «أو'هير»: إن المذهب الداروني يحلل الحياة، بما فيها الحياة البشرية، تبعاً لـ٥ بليون سنة من عمليات الاختلاف العشوائي والاستبقاء الاختياري. ككل شيء حي آخر، فنحن نعتبر منتجات لطفرات المصادفة، في التركيب الجيني للمخلوقات السابقة، كما هو الحال مع كل سماتنا وتصرفاتنا، التي، بصورة مباشرة أو غير مباشرة، قد أصبحت مختارة بسبب مساهماتنا في التعايش والتناسل. طبقاً لـ«دارون»، كل الأشياء الحية تسعى جاهدة إلى التناسل فيما بينها عند معدل هندسي، وطبقاً لما أسماه قانون الاختيار الطبيعي، طبقاً له أي اختلافات وتنوعات في أقل درجة ضارة ستكون مدمرة بصورة

(1) Ibid, p.64.

(2)O'Hear, Anthony,philosophy,biology and life,Cambridge university press,United Kingdom,2005,p156.

(٣) أنطوني أو'هير: الفلسفة في قرن جديد، ترجمة: وهبة طلعت أبو العلا، ص.١٢١.

جامدة. هذه الصورة لا تكون، كما تم ملاحظته، غير موافقة مع المعنى، الديني أو خلافه، لأن أي معنى مثل هذا سنضطر لإضافته لها.[١]

ويطرح «أو'هير» سؤلاً فيقول: على الرغم من أن بعض مظاهر نشاطنا تعد سهلة الملاحظة كمعزز للحياة، ألا نجد أيضاً في السلوك الإنساني الكثير من الخواص البارزة غير المتعلقة بحياة الفرد وبالتكاثر، أو حتى العداء نحو هذه الغايات؟[٢]

في النظرية الدارونية التفسير هو أن علاقاتي الدمِّية تتشارك في العديد من جيناتي، ولذلك ففي مساعدتهم سوف أدعم فرص البقاء والانتشار الأوسع لجيناتي. مرة أخرى، ليس هناك تعارض بين النظرية الدارونية وبين الأم التي تضحي بنفسها حتى يعيش أطفالها وعلى النقيض هذا بالضبط ما بنيت وبُرمجت جينياً لأدائه! ففي التضحية بنفسها من أجل أطفالها، فهي تضمن استمرار جيناتها بعد موتها.[٣]

أما على المستوى الجمالي فقد ردت النظرية الدارونية الجمال إلى نظرية التطور أيضاً فعند الدارونية حين نعتقد أننا محبين للغير، فإننا في الحقيقة نخزن الثقة لنسحبها فيما بعد. وقد نعتقد أننا نسعى للحقيقة في ذاتها، ولكن في حقيقة الأمر نحن نمارس ذكائنا العقلي ليساعدنا في الصراع من أجل البقاء. وقد نعتقد أنه في رسم صورة جميلة بالزيت أننا ملهمون بأفكار الجمال، ولكن لعبة الفن كلها تعد حيلة متقنة للحصول على رفقاء أكثر وأفضل من أقراننا.[٤]

ولكن يقول «أو'هير»: «أنا لا أدعي أن التفسيرات الدارونية مقنعة أو حتى مقبولة من بعيد».[٥] فـ «الفرد راسل والاس»، المشارك في اكتشاف نظرية التطور، احتج بأن عقلانيتنا، مساعينا الصادقة للمعرفة، معانينا الدينية والأخلاقية، وحبنا للجمال لا يمكن تفسيره في إطار تعزيز البقاء. ولقد خلص إلى أن هذا يعني لا محال أنه يوجد في الطبيعة البشرية أكثر مما يستطيع التطور وصفه.[٦]

(1) O'Hear, Anthony, After Progress, p.157.
(2) Ibid, p.65.
(3) Ibid, p.66.
(4) O'Hear, Anthony, After Progress, p.67.
(5) Ibid, p.67.
(6) Ibid, p.67.

لقد أصر «والاس» على أنه في عالم الإنسان تكون الاستجابة الجمالية جزء من طبيعتنا الروحانية - التي لم نتشارك فيها مع الحيوانات - حيث أن ما يبدو لنا أنه يشبه الاستجابة الجمالية في العالم الحيواني لا يبدو بالفعل هكذا.(١)

إن هذه الفكرة أفضل من الجدال العقيم للأصول والقرود. التي يجب أن ينصب تركيز المعاديين الدينيين الأصلين لـ«دارون» عليها. فيجب عليهم التركيز على تقدم المظاهر المهمة والحيوية لحيواتنا الغير دارونية في الطبيعة. وبكلمات «أو'هير»: أننا نسعى إلى الحقيقة، المحبة والجمال ونشعر أننا مقيدين بالخير من أجلهم، وليس من أجل أي امتياز تنافسي.(٢)

ولكن إذا أمكن تفسير المخلوقات البشرية علمياً، وإذا تمت الهيمنة فعلاً على نشاطنا من قبل السيدين المتناظرين المتعة والألم، فإن التفسير الداروني يكون كلا الأمرين مغوٍ وقوي، أو كما يوضح العقل والعلوم أننا لا شيء أكثر من آلات حية، مبرمجة من قبل الطبيعة للحياة والتكاثر. وحتى عقولنا - من وجهة النظر الدارونية - هي ببساطة أداة للعيش، فهو لم يمنح لنا لاكتشاف الحقيقة الأولى للأشياء ولكن ببساطة لإيجاد طريقنا حول السهول وما يكفي للحياة والتكاثر، أما البحث عن الحقيقة في ذاتها والشعور الأخلاقي بحب الغير ومراعاة الآخرين هو وهم نافع، لأغراض الحياة والتكاثر.(٣)

ويقول «أو'هير» في النهاية «إن الوصف الداروني، يرى معرفتنا، كأي شيء آخر عنا، فيما يتعلق ببساطة بفكرة الميزة المنتقاة. فلا يعطينا أي مجال لاتخاذ القرار».(٤)

ولم يكن «أو'هير» متفقًا مع الدارونية، فمن ناحيته يرى أن المذهب الداروني يعطي راحة للعنصريين ولهؤلاء الأشخاص المؤمنين بسيادة الجماعة. وفي رأي الباحثة إن الدارونية لم ترشدنا لأي سبيل للتقدم وإنما هي في الحقيقة تدعونا لنحيا كأجزاء من عالم الطبيعة، منخرطين في انسيابية واستسلام وآلية، خاضعين لكل خلية في انتظار وتأهب لتحديد مصائرنا النوعية. وهذا ما يعد تقييد للحرية الإنسانية، وتضليل لمعاني التقدم الحقيقية.

(1) O'Hear, Anthony,Philosophy, biology and life, p.160.
(2) O'Hear, Anthony, After Progress, p.67.
(3) Ibid,p.67.
(4) Ibid, p.68.

الرؤية الواحدية للتاريخ

التاريخ الهويغي:

إن مبادئ التاريخ الهويجي تتفق مع مبادئ الفيزياء الكلاسيكية التي تقول بمبدأ الحتمية فبمقتضى الفيزياء الكلاسيكية يمكن معرفة النتائج إذا كانت مقدماتها معروفة وكان العالم الفرنسي الكبير الماركيز دي لابلاس (١٧٤٩ - ١٨٢٧م) خير من عبر عن مبدأ الحتمية ومبدأ السببية (العلة والمعلول) في قوله:

«إن الحالة الراهنة لنظام الطبيعة هي بلا شك نتيجة لما كانت عليه في اللحظة السابقة، وإذا كنا نتمتع بذكاء يتيح لنا أن ندرك في لحظة ما كل علاقات الكينونات في الكون، فإن بالوسع تحديد مواضع، وحركات وآثار جميع هذه الكينونات في أي وقت في الماضي والمستقبل»[١].

وهنا سؤال مهم، هل إذا لم نتوصل إلى هذا المستوى من الصغر، سنتوصل لحدود فهم الإنسان؟ هل الفهم مقتصر على افتراضات الفطرة بالنسبة للفيزياء الكلاسيكية، افتراضات تظهر نظرية الكم أنها لم تفهم في المستوى الذري الفرعي؟ هل عالم الكم سيكون غامضة بالنسبة لنا إلى الأبد على الرغم من نجاحنا الفائق في التنبؤ بنتائج عملياته؟ حقاً إن النجاح المتوقع جداً للنظريات الغامضة بالنسبة لنا على الرغم من كل شيء يؤيد وجهة نظر «بور» على الرغم أننا في عام ١٩٩٩م يمكننا قياس ومعالجة نتائج الأحداث الكمية بعشرة أماكن عشرية، إلا أننا لا نقترب فعلاً من فهم ما يحدث بداخل الجسيمات الأولية إن كانت فعلاً جسيمات أكثر مما كان بالنسبة لـ «بور» و«هايزنبرغ» عام ١٩٢٠م. وبهذا المعنى، إذا توصلنا لهدف العلم، نحتاج أن نعيد التفكير جذرياً في أفكارنا وتصوراتنا بالنسبة للتقدم العلمي[٢].

ما يجب الحديث عنه هنا هو فكرة الفلسفة أو العلم التي بدأت تتغير في القرن السابع العشر حيث بدأت تظهر فلسفة جديدة وعلم جديد فقد ناديا أو صنعا الادعاءات نفسها التي فعلها كلًا من الفلسفة والعلم السابقين ولكن نتيجة أن ثورة القرن السابع عشر العلمية أنتجت شيئًا لم يكن موجودًا من قبل وهو ظهور العلم مع رأس المال. وقد كانت المحاولة في

(١) على الشوك: الثورة العلمية الحديثة وما بعدها، ص١٢٧.

(2) O'Hear, Anthony, After progress, P.98.

الأصل هي أن تحل الفلسفة الجديدة والعلم الجديد محل الفلسفة التقليدية والعلم التقليدي، وفي أثناء بضعة أجيال ظهر جزءًا فقط من الفلسفة الجديدة والعلم الجديد أو الفلسفة الجديدة كان ناجحًا فقط، ومن ثم فقد ظهر التمييز العظيم بين الفلسفة والعلم الذي كنا نؤلف بينهما، وجاء إلى الوجود فالعلم هو الجزء الناجح من الفلسفة أو العلم الحديث، والفلسفة هي الجزء القليل غير الناجح. وبهذا يكون العلم أعلى قيمة من الفلسفة ونتيجة لذلك حدث انخفاض في قيمة كل معرفة غير علمية من خلال هذا المعنى الغريب وأصبح العلم مهيمنًا على الفلسفة بطريقة مشابهة تمامًا للطريقة التي كان فيها اللاهوت مسيطرًا على الفلسفة في العصور الوسطى. فالعلم هو كمال فهم الإنسان الطبيعي للعالم. وعلى الرغم من ذلك إلا أن بعض الأشياء قد اتخذت مكانًا مختلفًا في القرن التاسع عشر فعلى سبيل المثال فإن اكتشاف عدم اقليدية الهندسة واستخدامها في الفيزياء التي أوضحت أن العلم لا يمكن وصفة بشكل كاف على أنه فهم الإنسان الطبيعي للعالم الكامل، بل بوصفه التغيير الجذري لفهم الإنسان الطبيعي للعالم. بعبارة أخرى، فإن العلم يقوم على فروض أساسية معينة وهذه الفروض ليست ضرورية بشكل مطلق والتي تبقى دائمًا افتراضية. وكانت النتيجة ترسم مرة أخرى بشكل أكثر وضوحًا من قبل نيتشه، فالعلم ليس سوى تفسير واحد للعالم من بين كثيرين. يمتلك بعض المزايا، ولكن هذا لا يعطيه أي وضع معرفي مرموق في النهاية. إنه بعبارة أخرى، مع المكانة الهائلة للعلم التي هي أعلى من أي قوة أخرى في العالم الحديث، إلا أنه يكون كعملاق ذي أقدام من صلصال إذا كنت تنظر إلى أساسيته.[١]

يقدم «بوبر»في النقاش التالي فيقول «إن منهج ومسار التاريخ البشري يتأثر بشدة بنمو المعرفة البشرية لا يمكننا عن طريق الطرق العقلانية أو العلمية توقع ما سيكون عليه هذا النمو.(ولو أمكننا ذلك، فعندها سنتمكن الآن من معرفة مالم نعرفه من قبل، ربما مدى أمان لتصرف في الفاقد النووي أو كيفية كتابة برنامج لترجمة حلقات حديث طبيعي مكتوب باللغة الإنجليزية إلى اللغة الفرنسية). ولهذا، فنحن لا يمكننا التنبؤ بالمسار المستقبلي للتاريخ البشري أو توقعه»[٢].

ويوضح «أو'هير» هنا أن النقاش يقترح بصورة مقنعة وكافية أنه لن يكون لدينا القدرة

(١) جميل أبو العباس زكير بكري: فلسفة السياسة عند ليو شتراوس، ص١٤٣.

(2) O'Hear, Anthony,Historicism and architectural knowledge, p.129.

على التنبؤ بحالات المعرفة المستقبلية، وهذا وحده ينبغي أن يجعلنا قلقين من ذرائع (ماركس، أو شبنجلر أو بيفستر) أو أي فرد آخر من أجل تكوين نبوءات تاريخية أو تحديد روح عصرنا في ضوء معرفتهم المفترضة للاتجاهات الكامنة في التنمية التاريخية، حيث أن ما سيسمى روح عصر معين يكون دائماً عرضة للتبدل وراء التخيل أو التنبؤ الحالي عن طريق اكتشاف ما جديد أو تطبيق تقنية جديدة، كما يتضح في مثال الكومبيوتر الصغير في حياتنا الخاصة[1].

لتوضيح الفكرة Correlation - Causation علينا التفريق بين السببية Causation والتصادف Correlation ودعنا نوضح ذلك عن طريق مثل روبرت ج. بارو ROBERT J. BARRO شرح فيها «قبل التسعينيات زادت نسبة الجرائم في نيويورك بصورة عالية على مدار ٢٠ سنة بنسبة تصل إلى ٨٠٪ بما يمثل كارثة، وتوقع جميع المحللين أن النسبة سترتفع إلى أكثر من ذلك، ولكن بعد ١٩٩٠م حدث أمر غريب، بدأت نسبة الجريمة تقل بصورة سريعة، إلى أن عادت في أقل من عشرة سنوات إلى نفس النسبة حدوث الجريمة من أربعين، وكان يرى المحللون يرى أن السبب في نقص معدل الجريمة هو ارتفاع نسبة رجال الشرطة» ولكن هل هذا هو السبب الحقيقي؟ الإجابة، لا هذا التحليل ما هو إلى تصادف، لأن من الطبيعي أن بازدياد الجرائم تزيد رجال الشرطة ولكن لم يكن هذا سبب مباشر لنقص معدل الجريمة، طبقا لدراسة قام بها ستيفن ليفت Levitt ودونهيو Donohue في إيكونومك أن السبب الحقيقي هو تطبيق قانون الإجهاض»[2].

ما نريد قوله هنا هو أن القول بالسببية والحتمية أمر ليس بالهين ففي محاولة الوصول إلى تحقيق السببية قد نقع في فخ التصادف لعدم تحققنا من من السبب الحقيقى أو العلة الحقيقية، وهذه تعد كارثة حقيقية تاجه الإنسانية كما أننا لا يمكن اعتبار التصادف سبيل للحقيقة أو حتى وضعها تحت مظلة الحتمية.

إن هدف أو‘هير هو أن الرؤية الهويجية جعلت من التقدم أمرًا بعيد المنال. فبالنظر للرؤية الهويجية للتاريخ نجدها تتنبأ بأن المجتمع الغربي في نهاية القرن العشرين سيحتل قمة التاريخ، وتحمل الوعود والضمان لذلك من خلال التاريخانية التي تأكد على أن هناك مسار لا مفر منه للتاريخ البشري، وأن هناك تيار أعمق لا يقاوم يتحرك للأمام، ويأخذ البشرية كلها

(1) O'Hear, Anthony,Historicism and architectural knowledge, P.129.

(2) https: //scholar.harvard.edu/barro/files/99_0927_crimerate_bw.pdf.

في رحابه، وسيتفق مهما كانت الأحداث، ويتخذون من التفاصيل العشوائية سبيلًا وبرهانًا لهم، كأنف كيلوبترا ودورها في انهيار الحضارة الرومانية.

ومهما تعددت الأمثلة التاريخية مثل «فوكاياما» و«الماركسيين» إلا أن رؤيتهم النهائية هي أن هناك نموذج حتمي وواضح للتاريخ، لا يمكن الفرار منه.

ما يريد «أو'هير» قوله هنا هو أننا باتباعنا مسار التاريخ ومكانيكا الكم، والتي أحدثت بلبلة على الصعيدين العلمي والفلسفي ببدائلها اللاحتمية والاحتمالية، فأصبحنا الآن نحيا في عصر من الشك واللايقين، ويمكن أن نكون أكثر دقة ونقول، أننا أصبحنا الآن نشك في تقدمنا. فيبدو - على حد قوله - أننا فقدنا القدرة على التنبؤ بأي شكل من أشكال المعرفة المستقبلية.

العودة للوراء:

لا يمكن الرجوع بالزمن. مرة أخرى، الحقيقة البديهية تعني «المكتوب على الجبين مقدر» أعني لا يمكن أن نقف في وجه القدر أو نتصدى له. ولكن هذا لا يتضمن أن التاريخ يسير في نظام أو اتجاه محدد، وهذا ما يرغب فهمه من يتحدثون بهذه الطريقة. هذا المفهوم خاطئ ببساطة، لا يمكننا السماح بإلغاء الماضي، بمعنى أن ما تم اكتشافه لا يمكن عدم اكتشافه. على سبيل المثال، لا يمكن أن ننسى أسرار الأسلحة الذرية، على الرغم أن العديد من العلماء سيفضلون أن ننسى. وعلى الرغم من ذلك، قد تضيع هذه المعرفة يوماً ما نتيجة لكوارث خفية. ولا يمكننا أن نوقف فعل أشياء تم القيام بها من قبل. على الرغم من أننا نرغب في فعل ذلك. ولكن لا يحدد ذلك مسبقاً ما سيحدث في المستقبل، على الرغم أننا نشعر بأن الاختلافات والفروق تقف في وجهنا. إنها على صلة بروح الزمن، ولا شك لهم دور في صياغته ولن يقف شيء في طريقهم.[١]

المشكلة هي أن خيالنا ضيق وذاكرتنا قصيرة. فنحن راضيين جداً وسلبيين في وجه العالم كما يكون. ننظر لكل شيء من منظور الحاضر، كما لو كان الحاضر كل شيء موجود، وكما لو كان الماضي مجرد نسخة مكررة من الحاضر. حيث تظهر الخيالات المحدودة والذاكرات القصيرة لعبة بيد من لهم السلطة اليوم. فقد أصبح التاريخ الهويجي رسمي وأصبحت التقدمية المرضية جزء من عقول المفكرين والمعلمين الذين يرغبون بشدة في تعزيز أوهام اليوم.[٢]

(1) O'Hear, Anthony, After Progress, p.100.

(2) Ibid, p.101.

في عام (١٩٣٠ - ١٩٤٠م) عندما تطورت الرياضيات والتكنولوجيا، لم يتنبأ أحد كيف سيغير الكمبيوتر الحياة اليومية وكيف ستصل تكنولوجيا المعلومات إلى كل جزء بالمجتمع والعمل. حتى الآن، هل نفهم ذلك؟ هل نعرف حقاً تأثير الكمبيوتر وتكنولوجيا المعلومات في الوقت الحالي، إذا تجاوزنا عن صورتهم بالمستقبل؟ كل هذا الشك في التطور التكنولوجي واتجاهه بعيد إلى حد ما عن الرأي الواضح والمتكرر بأن التطور التكنولوجي له نتائج مقصودة وغير مقصودة. كل تطور تكنولوجي يحل مشكلة ما، وإن لم يحدث ذلك فلن يكون تطورًا، ولكنه أيضاً يبرز مشاكل غير متوقعة من صنعه وقد تكون أصعب في حلها من المشكلة التي قدم لها حلًا. وأوضح ثلاثة أمثلة هم القوة النووية، السيارة المزودة بمحرك والمبيدات الحشرية.(١)

إن قول «أو'هير» بأن التاريخ يسير في اتجاه محدد، مفهوم خاطئ، فلا يمكن تحديد ما سيحدث مستقبلًا، قولًا أثار إعجاب الباحثة، فليس من المفترض أن نظل راضيين وسلبين في وجه العالم، وليس من المفترض أن نسلم بأن الحركة الدائرية للتاريخ حقيقة حتمية يجب الاستسلام لها وأن التقدم التكنولوجي هو التقدم الحقيقي الذي يجب أن تدور الإنسانية كلها في فلكه، دونما مقاومة، مستسلمين لنمطية فرضها علينا اعتقادنا بأننا في طريقنا نحو التقدم، فكان هذا الاعتقاد هو أول السبل التي تقودنا إلى التراجع، والاستسلام للقهر، والحتمية.

التاريخ والتطور:

ويقول «مايكل ستينمارك» عن «أو'هير» في مراجعة لكتاب «ما وراء التطور»: إن القضية الرئيسية التي تناولها «أو'هير» في موضوع التطور هي أنه بالرغم من كوننا نحن وقدراتنا ربما نكون قد تطورنا بطرق دارونية، إلا أن التطور الفجائي لنا ولقدراتنا يثبت أننا تطورنا بطرق لا دارونية على الإطلاق، فما أن برزت المعرفة الإنسانية والمذهب الأخلاقي، وعلم الجمال، حتى أصبح تحليلها حسب النظرية التقدمية أمراً لا طائل من وراءه. من ثم، ذهب «أو'هير» إلى أنه لا يمكن الأخذ بالمذهب الداروني كمفسر للسلوك الإنساني. بل يحتاج إلى أن يستكمل بأنواع أخرى من التفسيرات. كما لا يمكن اختزال مباحث المعرفة، والأخلاق، وعلم الجمال إلى مبحث المعرفة وحده.(٢)

---

(1) Ibid, p.104.

(2) Mikael Stenmark, (Anthony O'Hear Beyond Evolution human nature and the limits of evolutionary1) explanation") ,Religious studies, Vol. 35, No.4, Cambridge University press,1999,p.501.

ويكمل «ميشيل براداي»: إن هدف «أنطوني أو'هير» هو الادعاء بأن المذهب الداروني يشترط التفسير الكامل لما يعنيه أن تكون إنسان. إن جوهر حجته هو أن هناك أبعاد معيارية رئيسية لكي تكون إنسان وهو الهروب من شرك التفسير الداروني أو غيرها من التفسيرات الطبيعية. ليس هناك مجال للقول بأن الحسابات الدارونية التطورية تكون ذات صلة لفهم ما يعنيه أن تكون إنسان. إن النقطة الأعمق هي أن تلك الحسابات لا تشترط التفسير «الكامل». إن الجنس البشري المتطور ليس هو موضوع البحث. فنحن مندرجين من أجناس طبيعية. على سبيل المثال، نحن أجسام مادية كأي حيوانات أخرى لا أكثر ولا أقل. ولكننا، أكثر من ذلك[١].

على أي حال. فنحن نملك عقول. و إننا لسنا واعين وحسب بل واعين بذواتنا. بينما قدراتنا على الوعي والوعي بالذات متطورة بما لا يدع مجالًا للشك ، تلك القدرات تسمح لنا باستقبال ومتابعة الأهداف والموضوعات الملغزة أو حتى متعذرة التفسير على المفردات البيولوجية» وكأجناس واعية بذاتها، فإننا نستطيع، ونحدث انعكاس على، ونقيم تلك المعتقدات. ونحن نستطيع أن نفكر فيهم، وفي القيام بذلك، يأتي تصنيف المعتقدات «الجيدة» من المعتقدات «السيئة»، والمعتقدات السليمة من الخاطئة منها. فنحن يمكن أن نطور موضوعات مثل متابعة « ما هو حقيقي لأنه حقيقي، أكثر من كونه يخدم اهتماماتنا». في متابعة مثل هذا الموضوع، «أو'هير» يحاول أن يبرهن، أننا يجب أن نتجاوز التقييدات الخاصة بتفسيرات الطبيعيين لسلوكنا.[٢]

ويقول «أو'هير» في كتاب «ما بعد التقدم» أن الفروق الواضحة بين التاريخ والتطور البيولوجي، أن تاريخنا يبدو أقرب كثيراً للتطور منه للتفسير التقدمي. فمسار التاريخ يكون أقل توحداً، غير متوقع كثيراً وقائد للصدفة أكثر مما يكون عليه التقدميين. لا يعد التاريخ مسيرة ثابتة للأمام، لكنه أكثر من مجرد خطوة للأمام وخطوة مجهولة المسار. اتجاه التاريخ غير سابق التحديد، وليس ما يحدث بالضرورة أفضل مما حدث. فهو ليس بالضرورة علامة على الغباء الأخلاقي أو العقلي ليكون خارج نطاق التواصل مرة واحدة.[٣]

(1) Michael Bradie, (Anthony O'Hear: Beyond Evolution" human nature and the limits of evolutionary explanation"),philosophy and phenomenological research, Vol. 62, No.1, international phenomenological society,2001,p.235.

(2) Michael Bradie, (Anthony O'Hear: Beyond Evolution" human nature and the limits of evolutionary explanation"),p.235.

(3) O'Hear, Anthony, After Progress, p.108.

خاتمة

وفي نهاية الدراسة، يتضح أن التقدم الذي حققناه هنا هو التقدم العلمي المادي الذي نفاخر به أنفسنا وهو حقاً السبب وراء الضعف الروحاني والجمالي. ليس هناك دليل على تحقق هذا القدر من الرضا والسعادة الفردية.وقد ظهرت هذه الخسائر بصفة خاصة في المناطق التي يعتقد أنها منحازة للدين أو قريبة منه؛ مثل الفن، التعليم، الأخلاق، والفلسفة. فلقد أصاب الانحطاط الدين بشكل سريع، وانحطت معه العديد من الممارسات والعادات التي كان يسلم الناس بها جدلاً في ما مضى.لقد أصبحنا نتلقف كل ما يقذف إلينا على أنها حقائق لا تقبل الجدل، حتى قتلت لدينا تلك العقلانية الفطرية التي تجعلنا نتلمس علل الأحاسيس ومعلولات الإدراك. لقد كان الدين والأخلاق من الأمور التي انقلب عليها عصر التنوير وعقلانيته، من فرانسس بيكون، نيوتن، حتى كانط، والداروينية. وليس هناك أي دليل على أننا وصلنا إلى نقطة حاسمة في التاريخ البشري، ليس هناك تقدم في طريق البشرية على الرغم من كل تقدمنا

المصادر والمراجع

أولا: المصادر العربية

- أنطوني أوُهير: الفلسفة في قرن جديد، ترجمة: وهبة طلعت أبو العلا، دار الهدى للنشر والتوزيع، المنيا، ط١، ٢٠١١.

- إ. م. بوشنسكي: الفلسفة المعاصرة في أوروبا، ترجمة: عزت قرني، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٩٢.

- حبيب الشاروني: فلسفة فرانسس بيكون، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط١، ١٩٨١.

- زكي نجيب محمود، ثقافتنا في مواجهة العصر، دار الشروق، ١٩٧٦.

- عبد السلام بنعبد العالي: الميتافيزيقا، العلم والأيديولوجيا، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط٢، ١٩٩٣.

- على الشوك: الثورة العلمية الحديثة وما بعدها، دار المدى للثقافة والنشر، سورية، ط١، ٢٠٠٤.

- على عبد المعطي محمد: أعلام الفلسفة الحديثة، دار المعرفة الجامعية، الأزاريطة، ج٢، ١٩٩٧.

- مصطفى النشار: مدخل جديد إلى الفلسفة، دار قباء، القاهرة، ط١، ١٩٩٨.

- هاني يحيى نصري: دعوة للدخول في تاريخ الفلسفة المعاصرة، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ٢٠٠٢.

ثانيا: المصادر الاجنبية

- O'Hear, Anthony, Verstehen and Humane understanding, Cambridge University Press, United Kingdom, 1996

- ....., After Progress, finding the old way forward, Bloomsbury publishing plc, London, first published, 1999,

- ,..... philosophy, biology and life, Cambridge university press, United Kingdom, 2005

- .....,science and religion, the British journal for philosophy of science,Vol.441, No.3, Oxford University Press, 2010.

John Kekes,(Anthony O'Hear: Philosophy in the new century), Mind new series, Vol. 111, No.442, Oxford University Press, 2002

Michael Bradie, (Anthony O'Hear: Beyond Evolution» human nature and the limits of evolutionary explanation"),philosophy and phenomenological research, Vol. 62, No.1, international phenomenological society,2001

Mikael Stenmark, (Anthony O'Hear Beyond Evolution human nature and the limits of evolutionary explanation") ,Religious studies, Vol. 35, No.4, Cambridge University press,1999

ثالثًا: المواقع الإلكترونية

https: //scholar.harvard.edu/barro/files/99_0927_crimerate_bw.pdf

https: //www.youtube.com/watch?v=gh - 6HyTRNNY

http: //www.askphilosophers.org/question/2226